

حدود التسامح

محمد جديدي
باحث جزائري



قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

تمهيد:

تثير مسألة التسامح العديد من الإشكاليات والمفارقات بدءاً من مدلول مفهوم التسامح ومروراً بمختلف الإشكاليات المتصلة برؤى ووجهات نظر حتى الذين دعوا إلى التسامح ونظروا له وانتهاءً بالمفارقات الكثيرة التي تحيط بحدود التسامح وكيفيات ممارساته وتطبيقاته.

1- إشكالية التسامح:

إشكالية التسامح تتأرجح بين تنظير مستنير وفاحص لجوانب المبدأ في خيريته وعدليته من جهة لكن من جهة أخرى تصطدم بواقع معقد يحتم التعامل معه علاوة على أساس التنظير الأولي المثالي بإجراءات ميدانية تأخذ بعين الاعتبار ما يعج به الواقع المحلي من معتقدات وعادات وفي هذا تأتي المسألة النقدية حول التسامح.

لا يدور جدل المفكرين حول التسامح من جهة كونه مبدأ إنسانياً سامياً وقيمة مثلى ينبغي أن تسود فكر وسلوك الإنسان فرداً وجماعة إنما ينصب النقاش حول حدود المبدأ: فهل للتسامح حدود؟ التساؤل الكبير يطرح إن كان يجب أن تكون له حدود أم لا؟ من الذي يضعها؟ وما هي آليات تجسيدها؟ بمعنى هل من الضروري فرض التسامح بما يمكن تسميته "عنف الإقناع" أو "الإقناع العنيف" أم أنه وعي ذاتي واقتناع بأهمية المبدأ في حياة الشعوب؟ تلكم هي إشكالية التسامح في واقعنا الراهن وفي التجارب البشرية الماضية. حينما عاد بول ريكور Paul Ricoeur إلى تحليل أصل كلمة التسامح ضمن معاجم اللغة الفرنسية رأى أنها مهددة بأمرين هما البساطة والغموض. وضمن هذين التهديدين تطرح مسألة الحدود التي يتطرق إليها الفيلسوف حيث لا يجد أنها واضحة ومفصلة وإلى من ترجع الصلاحيات والمسؤوليات فيما طرحته المعاجم.¹

أ- هل يكفي التسامح لحل الصراعات؟

من الناحية النظرية، يبدو أن اللجوء إلى التسامح كشرط أولي للتعايش والسلام كفيل مبدئياً بتحقيق غاية الهدوء والتساكن. لكن من الناحية العملية، وبالنظر إلى السلوكيات - وهي بالطبع المؤشر أو مقياس تطبيق فضيلة التسامح- تصادف التواءات جمة هي بحد ذاتها سلوكيات غالباً ما يتخذها منظروا خطاب التسامح دليلاً على تنافر الواقع الاجتماعي أو انتشار اللاتسامح. من هنا نرى ضرورة عدم اعتبار حادثة بعينها أو حالة منفردة، منعزلة دليلاً على فشل أو خطورة مبدأ التسامح، إنما قد تتخذ نموذجاً تحلل فيه أخطاء عدم تجسد

¹ لمزيد من الاطلاع على تحليل ريكور لمبدأ التسامح وموقفه من دلالاته المعجمية يرجى العودة إلى مؤلفه المعنون: Lectures 1: Autour du politique في الجزء الذي يقع من الصفحة 295 إلى الصفحة 312 ويحمل عنوان: Tolérance, intolérance, intolérable.

التسامح واقعيًا والحث على بحث أفضل الإجراءات الموصلة إلى ذلك. إن اختراق ميثاق أو خرق مرسوم تعدي عنيف من قبل فرد أو جماعة لا يجب أن يكون ذريعة للنيل من قدسية التسامح وقيمه الإنسانية العليا بل على العكس ينبغي أن تجتهد الإدارات الفردية والمؤسساتية في الدفع به قدما لبلوغ غاية التجمع البشري في الأمن والتعاون والتضامن والسعادة وهي نفسها المهمة والغاية التي من أجلها قامت الدولة ككيان أو كما قال جون لوك J. Locke: "الدولة مجتمع من البشر يتشكل بهدف توفير الخيرات المدنية والحفاظ عليها، وتميبتها. وأنا أعني بالخيرات المدنية الحياة، والحرية، والصحة، وراحة الجسم، بالإضافة إلى امتلاك الأشياء مثل المال، والأرض، والبيوت، والأثاث، وما شابه ذلك."² فالدولة ككيان اجتماعي وسياسي قامت لتيسر وتنظم سبل تحصيل الإنسان للخيرات وتقادي الصدام والتوتر في العلاقات الإنسانية.

ب- مفارقات التسامح

يثير التسامح مفارقات عدة، ناتجة عن ثنائيات مباطنة لماهية التسامح فبين الإيجاب والسلب في حقيقة التسامح (أي فهم التسامح من خلال عدم المنع أو الحرية في الفعل والتصرف أو في ضرورة التقيد والتدخل إن كان الأمر يتطلب باسم الأخلاق عدم قبول هذا السلوك واعتباره غير متسامح أو لا يسمح به) وربما هذا ما عبر عنه ريكور Ricoeur بثنائية البساطة والغموض منطلقا في ذلك من زاوية معجمية شارحا موقفه من التسامح الذي لا يخلو في رأيه من الرجوع إلى غير المسموح حبه أو إضافة اللامقبول l'intolérable. وهنا يطرح السؤال كيف بالإمكان أن يتحول التسامح من فضيلة أخلاقية في تحليلها البسيط إلى قبول ما لا يتفق مع ما نعتقد أو ما نسلك إلى مخالفته ومن ثم منعه وعدم الاعتراف له بحرية الاختلاف؟ فهل يتعين علينا أخلاقيا حتى لا نناقض مبادئنا الأخلاقية ومنها بالتأكيد التسامح القبول بمبدأ غير منسجم مع معتقداتنا وأحكامنا ليس من باب عدم معرفة خيرية التصرف من شريته إنما من زاوية معيارية موضوعية للسلوك. "إن كان التسامح [تقول مونيك كانتو سبيربر] فضيلة فهو بالفعل فضيلة تحمل ما لا نحبه حقا، وأن نعتبر أن قبول شيء نحكم عليه بأنه سيء أخلاقيا هو أمر جيد أخلاقيا."³

ج- التسامح قبول مستنير

فهل يتعين علينا أخلاقيا حتى لا نناقض مبادئنا الأخلاقية، ومنها بالتأكيد التسامح، القبول بمبدأ غير منسجم مع معتقداتنا وأحكامنا ليس من باب عدم معرفة خيرية التصرف من شريته إنما من زاوية معيارية موضوعية

² جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة: منى أبوسنة، مراجعة: د. مراد وهبه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 1997م، ص 23

³ مونيك كانتو-سبيربر و روفين أدجيان، الفلسفة الأخلاقية، ترجمة جورج زيناتاي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص. 103

للسلوك.⁴ "إن هذا التصميم على التسامح لا يأتي من موقف شكوكي قائم على أننا ما دمنا لا نعلم بالضبط ما هو خير وما هو شر، نقرر عدم التدخل، وبالتالي أن نتسامح؛ ولكنه يأتي على العكس من ذلك من واقع أننا حين نعلم بأن شيئاً معيناً سيء، نعتبر أن فضيلة التسامح هي بالضبط قبوله، لأن هذا القبول هو أمر جيد، بسبب القيمة الداخلية الخاصة بواقعة عدم التدخل في أعمال شخص آخر أو في آرائه."⁵ ولعل هذه المفارقة الكامنة في صميم التسامح هي ما يجعل من الصعب تبرير وإقناع الآخر بضرورة التسامح لأن هناك من يعتبر أن التسامح مع الشر هو بدوره شر بعينه "يكاد يوازي في خطورته ارتكابنا له بأنفسنا."⁶ لتجاوز هذه المفارقة ترى مونيك كانتو سبيربر M.-C. Sperber أن هناك عدة ردود كفيلة بتخطي هذه العقبة تحدها في:

1. كل الأشياء التي تهدد التسامح نفسه لا تستطيع الاستفادة منه "لا تكن متعصبا حتى تستحق التسامح" فإذا لم تكن متصفا بالتسامح لا تطمح في أن ينالك منه حظ وأنت أكيد بحاجة إليه.
2. مطابقة بين اللاتسامح وبين نفي الحقائق التي يمكن أن يطالها أي شك أخلاقي، على سبيل المثال، الرق أو التمييز العنصري هما شران. التسامح المبني على الحقيقة يتساوى معه اللاتسامح المؤسس على الخطأ.
3. الانتقال من مبدأ التسامح نظريا إلى تفعيله واقعا بحيث يتصف الفرد (المواطن/ الفاعل) بقوة التحمل على جعل التسامح صفة تلازم سلوكه لا مجرد مبدأ يدافع عنه في حلقة نقاش أو ضمن إطار نظري بعيد عن الحياة اليومية.
- لكن مع ذلك نتفق على ألا نتسامح مثلا مع العنصرية، التمييز العنصري، الظلم، الإذلال والإهانة، الاستبداد، فهذه في اعتقاد كل فرد صفات منبوذة ومذمومة أخلاقيا؛ فعلينا ألا نقبلها من الاحترام حتى وإن خالفنا مبدأ التسامح المطلق. هنا يعود بنا ريكور إلى معيار اللاتسامح والذي رأى أنه يكمن الاحترام. يتساءل الفيلسوف ريكور:

ما معيار ما لا يطاق؟ لا يمكن أن يكون سوى واحد فقط: هو ما لا يستحق الاحترام، إذا كان الاحترام هو فضيلة التسامح على المستوى الثقافي. ما لا يستحق الاحترام، لأنه يبنى بالضبط على عدم الاحترام، أي رفض

⁴ في هذا السياق يميز أحد الباحثين بين نوعين من التسامح يسميهما التسامح والتسامح الحديث الأول ذو دلالة سلبية أي تحمل المعاناة أو عدم منع ما لا ينبغي أن يتم أما الثاني فقد تطور مع منعطف النهضة الأوروبية وبروز الذات تبعا لطروحات فلاسفة تلك المرحلة بحيث عد التسامح قرينا للحرية.

Ghislain Waterlot, La tolérance et ses limites: un problème pour l'éducateur, in, Spirale, revue de Recherches en Education, N° 21, 1998, PP. 183-184

⁵ مونيك كانتو-سبيربر و روفين أدجيان، الفلسفة الأخلاقية، ص.103

⁶ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

افتراض الحرية للانضمام إلى المعتقد المخالف.⁷ فهل يكون الدين متسامحا في ترك فسحة للآخر المختلف عقديا؟ وينزع عنه صورة العدو لأنه ببساطة مغاير في الدين ويتميز بحق يسمى حرية المعتقد؟ هل يرقى الدين إلى هذا المستوى من التسامح؟

2- التسامح إشكالية دينية

قد لا نبالغ إن جعلنا الجدل حول التسامح مقترنا في جزء كبير منه بالدين وربما رسخت المؤلفات التي تناولت مبدأ التسامح بالنظر الفلسفي هذا التصور سواء عند لوك أو بايل أو فولتير أو غيرهم. فهل حقيقة طبع الدين التسامح بطابعه واقترب به أم هو أحد أوجهه الأساسية؟

أ- الدين من التسامح إلى اللاتسامح

في مرسوم ناننت Edit de Nantes⁸ يظهر الدين كما لو أنه أصل اللاتسامح. فالمرسوم ينص على ضرورة التسامح وقد أعطاه صبغة تعاقدية ورسمية، علما بأن خلفيات الصراعات والحروب غالبا ما لا يعلن عنها وعن عواملها، أسبابها وأهدافها الحقيقية بل إنها كثيرا ما تعتمد إلى التضليل وفيه تلبس ثوب الدين وهو منها براء. فقد استغل الدين بوجه بارز ليحقق رافعي رأيته مآرب شتى ولا يزال إلى اليوم يستغل من طرف السياسيين لكسب الدعم والرأي العام في صالحهم. كما أن لا يعني مطلقا أن الدين كان بعيدا عن مسرح أحداث التاريخ الإنساني فكثيرة هي الحروب والنزاعات التي حملت عنوان الحروب الدينية مثل الحروب الصليبية بين المسيحيين والمسلمين أو الحروب التي رفعت فيها رايات الجهاد لمحاربة أعداء الأمة الإسلامية وهذه الشعارات الدينية لم تختف ونعتقد أنها ستبقى متداولة.

يحمل الدين في طياته معاني الرحمة والتضامن والتقوى وهي المعاني التي تعج بها نصوص الدين بيد أن مفهوم البشر وتأويلهم لها جعلتها تحيد عن هذا الإدراك وإذا ما تبين لنا أن التسامح هو الاعتراف للآخر كما رأى ذلك سبينوزا بحرية التعبير والمعتقد يصبح مبدأ لا إكراه في الدين قرين التسامح بل هو التسامح عينه. وبالتالي فإن الحكم بالمروق والهراطقة والزندقة سيعمل على محو مبدأ التسامح وتعطيله ويحل محله مبدأ التكفير الذي يفرضي لا محالة إلى العنف لأن من لا يقر بحرية المعتقد للآخر سيحمله على اعتناق ما يعتقد ليس بالحوار

⁷ Paul Ricoeur, Lectures 1: Autour du politique, Editions du Seuil, Paris, 1991, p. 306

⁸ مرسوم ناننت Edit de Nantes - حمل المرسوم اسم مدينة ناننت الفرنسية. صدر سنة 1598 في عهد الملك هنري الرابع الذي تحول من البروتستانتية إلى الكاثوليكية جاء هذا المرسوم ليعلن حالة من التهدئة تتمتع فيها كل المذاهب الدينية بحرية العبادة والمعتقد وعلنا في الوقت نفسه عن نهاية الحروب الدينية في فرنسا وإشاعة أجواء التسامح مع أتباع البروتستانت الكالفينيين. لكن هذا الميثاق لم يحترم وألغي في سنة 1685 تحت حكم لويس الرابع عشر بحجة الوحدة الدينية وعادت الصراعات الدينية مجددا بين مختلف الطوائف والمذاهب.

والمحادثة الهادئة إنما باستعمال القوة كحجة ترهيب لمماثلة الفكر والعقيدة إذا تمسك بالوجود والحياة أو الاندثار والموت في الحالة المخالفة. إذن لا مناص من البدء في سبيل تعايش مشترك من نبذ التعصب لأنه كما قال جيفرسون "هو علة الجهل والعقول المريضة وحماسة الطائشين. أما التعليم والنقاش الحر فهما علاج هذا كله".⁹

لقد حاول فلاسفة أوروبا بدءاً من نهاية القرون الوسطى تجاوز حالة التمازج الديني والديوي، التي ميزت الحياة في تلك المرحلة. وبدا من الضروري فصل الجانبين وتحرير الإنسان والمجتمع من ربة الكنيسة حيث لاحت في الأفق إرهابات التفكير العلماني الفاصل بين السلطتين الزمنية والروحية. وهو ما كشف عنه جون لوك في رسالته المعنونة بالتسامح.

ب- تحييد الدين

هل تحييد الدين هو الحل؟ في مجتمعات فسيفسائية، تتنوع وتتعدد فيها العقائد والثقافات والأجناس¹⁰ كان لا بد من إزالة أسباب الصدام وعلى رأسها الدين - أو على الأقل كما بدا لبعض المحللين أن أصل المشكلة هو الدين- بناء على الصراعات التي اتخذت في عمومها مظهراً دينياً جرى تفكير الفلاسفة على الربط بين التسامح والدين وكأن الواقع آنذاك حتم مثل هذا الربط وهو كذلك فعلاً إلا أن الدين ليس هو الجانب الوحيد الذي يجب أن ينحصر فيه التسامح حتى وإن بدا مظهره وشكله الأكثر بروزاً.¹¹ فقد أشار لوك في رسالته حول التسامح إلى وجوب الفصل بين مهام السلطتين المدنية والدينية حيث قال:

"...ومن أجل ألا يسعى آخرون، بدعوى الدين، إلى أن يجدوا في الدين خلاصاً لما يرتكبونه من إباحية وانحلال، ومن أجل ألا يفرض أحد على نفسه أو على غيره أي شيء تحت دعاوى الولاء والطاعة للأمير، أو الإخلاص والوفاء في عبادة الله، أقول إنه من أجل هذا كله ينبغي التمييز بدقة ووضوح بين مهام الحكم المدني

⁹ جون ديوي، آراء توماس جيفرسون الحية، ترجمة، محمود يوسف زايد، مراجعة د. جبرائيل جبور، دار الثقافة بيروت، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت - القاهرة - نيويورك، 1957م، ص 169

¹⁰ وهي السمة الغالبة على معظم من المجتمعات المعاصرة في تركيبها- بحيث يندر أن نجد مجتمعاً يتسم بالانسجام العقدي والفكري واللغوي والثقافي والعرقى وبالنظر إلى هذا التكوين المتنوع تجتهد الدول وحتى المنظمات الإقليمية والدولية في وضع تشريعات ومواثيق من شأنها أن تحفز الأفراد والجماعات على التمسك بالتسامح واحترام حقوق الإنسان وضمان تمثيل الأقليات سياسياً وتمكينهم من حرية التعبير وحرية المعتقد وحرية التنقل وما إلى ذلك من حقوق باتت موققة دستورياً.

¹¹ لا يقصد بالصراع الديني ما يفهم عادة من خصومات بين دين ودين آخر (صراع الأديان) إنما ما قد يكون من تنازع داخل الدين الواحد كما هو الحال بين المسيحيين (كاثوليك وبروتستانت) أو بين المسلمين (سنة وشيعة). فالدين بطبيعته دغماني dogmatique ومن حيث إيمان بعقائد معينة يحمل بين طياته فكرة الوفاء والتعصب للمعتقد مضاف إليه الفهوم والتأويلات البشرية التي يدعي كل منها الصواب والحقيقة وهو ما يدفع ليس دائماً باتجاه اللاتسامح وحمل الآخرين على اتباع هذا المذهب وتخطيء الآخر. الدليل على هذا أن أغلب النزاعات في التاريخ شنت باسم الدين وحتى تلك التي ليست في الأصل كذلك أليست ثوباً دينياً حتى يضمن صناعتها قدراً أكبر من شحن الناس وتعبئتهم أو لإضفاء المشروعية على حقوقهم وبالتالي فالمرجعية الدينية تذكي وتؤجج نار الفتن والعنف وتخفي وراءها مصالح غير معلنة في العادة سياسية واقتصادية.

وبين الدين، وتأسيس الحدود الفاصلة والعادلة بينهما. وإذا لم نفعل هذا فلن تكون هناك نهاية للخلافات التي سنتشأ على الدوام بين من يملكون الاهتمام بصالح نفوس البشر، من جهة ومن يهتمون بصالح الدولة من جهة أخرى.¹²

تشير فكرة لوك هنا إلى أمر جد مهم سيطلع مبدأ التسامح وهو الطابع المؤسسي بحيث يصير مثل غيره من الأمور التي أخذتها الدولة على عاتقها بعدما تشكلت ككيان ينظم البناء الاجتماعي وينظم العلاقات بين الأفراد والجماعات.

إن فكرة لوك هذه كان لها الأثر على المثقفين الأمريكيين الباحثين عن الحرية وقد تلقاها توماس جيفرسون¹³ مثلما تلقى أفكار الأنواريين الأوربيين من كانط وفولتير وروسو وتأثر بها وربما هذا ما تمثل في تلقي أحد صناعات الأنوار الأمريكية وهو توماس جيفرسون نداء كانط¹⁴ وعمل على تليته حينما أعلن: "لقد أقسمت أمام هيكل الله أن أحمل عداً أبدياً لكل شكل من أشكال التسلط على عقل الإنسان."¹⁵ لم يبق جيفرسون حبيس اعتقاده المدافع عن العقل بل إنه وضع الخطوات الضرورية لتجسيد هذا التوجه. وذلك بوضعه لثلاث أفكار قيد التطبيق مهدت لتجسيد الأنوار عملياً، هذه الأفكار هي: 1- المساهمة في تحرير وثيقة الاستقلال، 2- سن قانون فرجينيا لحرية المعتقد، 3- إنشاء وتأسيس الجامعات وتشجيع العلم.

في هذا الإطار جاء مرسوم ناننت سنة 1598 في محاولة لوضع حد للنزاع الديني وأيضاً في هذا السياق وضع توماس جيفرسون تشريعاً ينص على ضمان حرية المعتقد للفرد الأمريكي وألا تكون المواطنة على أساس ديني فبعد أن تحرر من ربة الاحتلال الإنجليزي بإعلان الاستقلال الشهير يردف ذلك بخطوتين هامتين إحداهما تخص حرية المعتقد وأخرى تشجع التعليم وتحفز عليه لأنه مفتاح السلم والتقدم هكذا كانت رؤية أنواريين أمريكا إلى بلدهم كنموذج لبقية البلدان والشعوب "لقد قدر لنا أن نكون حاجزاً يحول دون عودة الجهل والهمجية..... ولا شك أننا في هذه الحالة سنكون سنداً مانعاً للفكر الحر والحرية في العالم كله."¹⁶ نموذج كما أراده جيفرسون والبراغماتيون من بعده لا يلتفتون إلى الماضي بقدر حرصهم على المستقبل والتوجه إليه بكل قوة وشغف.

¹² جون لوك، رسالة في التسامح، ص 23

¹³ توماس جيفرسون شخصية سياسية وثقافية أمريكية بارزة، ثالث رئيس للولايات المتحدة الأمريكية لعهدتين من سنة 1801 إلى سنة 1809 أحد محرري وثيقة الاستقلال وأحد منظري الأنوار الأمريكية ورئيس الجمعية الفلسفية الأمريكية وعي حلقة للنقاش أسسها بنجامين فرانكلين.

¹⁴ نقصد بندا كانط هو تشخيصه لقصور الإنسان في عدم جرأته على استعمال عقله إلى أقصى مداه وذلك في إجابته عن السؤال: ما الأنوار؟

¹⁵ جون ديوي، آراء توماس جيفرسون الحية، جيفرسون، ص 151

¹⁶ المرجع نفسه، ص 169

3- التسامح إشكالية سياسية

لم يكن النقاش حول التسامح ليخلو من بعده السياسي لا سيما بعدما صار الفكر السياسي مستحوذا على اهتمامات الفلاسفة وتشكل الدول القومية في العصر الحديث أمرا بارزا وقيام ثورات هامة (فرنسية وإنجليزية وأمريكية) فرضت أهدافها وشعاراتها على عصب العلاقات الاجتماعية داخليا وخارجيا وكان للتسامح حضور قوي فيها.

مع بداية نشوء وتبلور فكرة الدولة ككيان تنظيمي لعلاقات الأفراد والجماعات، بدأ التفكير والبحث عن أسس البناءات الاجتماعية المثلى والتنظير لإقامة هذه العلاقات الإنسانية على أفكار متينة تجنب حدوث الصراعات أو تفصل فيها. كان الوعي في تنامي متزايد بضرورة تشخيص الواقع الإنساني الممزق بخلفيات الحروب والنزاعات لذلك كان نظر الفلاسفة والحكماء والمشرعين بدءا من عصر النهضة شاخصا باتجاه أفق دائم للسلام كغاية ينبغي أن تتحقق على أرض الواقع ولكن بداية بالكشف عن أسباب وعوامل تيسر الطريق ل طرح الوسائل الكفيلة ببلوغ حالة الاستقرار المنشود الذي لا يكون ممكنا إلا بالتسامح والحرية.

أ- التسامح والحرية

قد لا نختلف فيما يوجد بين التسامح والحرية من تداخل وتلازم إلى الحد الذي لا نستطيع معه الفصل بينهما بحيث يمكن الإقرار أن لا حرية دون تسامح ولا تسامح من دون حرية وهذا بالضبط ما تمثل في الثورات الحديثة لا سيما الفرنسية والإنجليزية والأمريكية هذه الأخيرة التي تقمصت ثوب الحرية، فبدت وكأنها الرقعة الأكثر تجسيدا لقيم الحرية والتسامح وبانت حلما مشخصا وأفقا لكل حالم بحياة كريمة وسعيدة. وتزداد إشكالية التسامح تعقيدا متى أقررنا بأنه إذا كان كل منهما ضروريا للآخر فإنهما في الوقت نفسه يصبحان خصمان وضدان عند الغلو والتطرف.

في هذا السياق وحينما نشأت دولة الولايات المتحدة الأمريكية دولة فنية تحقق فيها مطمح الإنسان الحر وبدت أمريكا كحلم إنساني تجسدت معه قيمتين إنسانيتين استهلكتا حبرا وجهدا كبيرين من عصور سابقة على تجسيد الحلم في الواقع. فقد تخلص الواقع الجديد - واقع الاستقلال عن الإمبراطورية البريطانية - من أعباء النظرية تاركا وراءه زخما كبيرا من الأفكار والتصورات التي أثقلت كاهل العقل الكلاسيكي بالتواءات وتفصيل أغرقت الإنسان في ممارسات الماضي ولم تجد سبيلا إلى تحويلها لصالح حرية حقيقية بشرت الإنسانية بواقع وفجر جديد.

فجر الديمقراطية الذي لن يكون ممكنا من دون حرية ولا حرية من دون تحرر ولا تحرر من دون تسامح. هكذا سارت أمريكا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بخطى ثابتة نحو أمريكا العالم الجديد، بلد الحرية والديمقراطية. أمريكا التي ستتقمص الحرية وتتجسد على أرضها لتغدو رمزا ونموذجا أولا، يراد له أن يحتذى وتحاكيه باقي الشعوب والأمم، حتى وإن لقي استهجانا وتمردا واحتجاجا؛ ليس من خارج الولايات المتحدة الأمريكية فحسب بل من داخلها أيضا، في صورة نقد يندر أن نجد له مثيلا في بلدان تتقاسم مع أمريكا قيم الحرية وحقوق الإنسان والحضارة الجديدة بل وتنافسها بغرض تقديم النموذج الأفضل، وذلك هو حال الديمقراطيات الغربية. فالوعي بتحقيق قيم الحرية والتسامح لم يكن وعيا محليا أمريكيا فحسب بل كان إنسانيا وعالميا وهذا ما تمثل لدى رواد التنوير الأمريكي.

يناقش ريكور مفهوم التسامح ليس من منظور أخلاقي؛ بل يدفع به إلى أفق المؤسسة ويعطيه صبغته الحقوقية والسياسية مع ربطه بالأفق الديني واللاهوتي، وهو ما أوضحه ووجد له سندا في تحليله للتسامح ضمن نظرية العدالة لـ راولس، إذ ربط التسامح واللاتسامح برؤية في العدل والحقيقة.

ب- حقوق الإنسان والتسامح

أصبح مبدأ التسامح من ركائز حقوق الإنسان فمذ سنة 1948 أي السنة التي تم فيها الإعلان عن حقوق الإنسان صار التسامح جزءا لا يتجزأ من التاريخ الإنساني وأصبحت حرية المعتقد والرأي والتعبير حقا ثابتا من حقوق الإنسان.

لقد شرع فلاسفة العقد الاجتماعي في تحليل ومعالجة مظاهر العنف والسلطة وتوضيح روابط الحياة الاجتماعية، تقاربت أحيانا رؤاهم واختلفت، لكنهم وجدوا في التسامح مبدأ أخلاقيا لا محيد عنه لتخطي حالة التوتر الصراع. فقد خص لوك موضوع التسامح برسالة أوضح فيها ضرورة التسامح الديني وأهميته القصوى في حياة الأفراد والمجتمعات. كما يمكن أن نقرأ في رسائل هوبز وروسو بالرغم من اختلافهما في تحديد الطبيعة الأصلية للفرد بين الخير والشر إلا أن تأكيدهما على التربية والسياسة كعاملين مهمين لتهديب السلوك ودفع الفرد باتجاه التسامح جلي في طروحاتهما.

وهو الأمر نفسه الذي نادى به بايل Bayle وغيره من فلاسفة العصر الحديث بل شددوا عليه في سبيل أن يشعر الفرد بحريته ويتمتع بحقوقه في ظل حكم مدني يفصل فيه القانون والقضاء بين المتنازعين.

فقد حمل البند الأول لمنظمة اليونسكو هذه التصورات الفلسفية حول إعلان مبادئ التسامح لسنة 1995 والذي تم تبنيّه في الدورة الثامنة والعشرين للجمعية العامة للمنظمة بتاريخ 16 نوفمبر 1995 بباريس¹⁷ والتي تمثلت في ضرورة العمل على اتخاذ الإجراءات والتدابير الكفيلة بتجسيد وتعزيز التسامح بين الأفراد والمجتمعات:¹⁸

1- إن التسامح يعني الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثري لثقافات عالما ولأشكال التعبير وللصفات الإنسانية لدينا. ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير والمعتقد. وأنه الوئام في سياق الاختلاف، وهو ليس واجبا أخلاقيا فحسب، وإنما هو واجب سياسي وقانوني أيضا، والتسامح، هو الفضيلة التي تيسر قيام السلام، ويسهم في إحلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب،

1-1 إن التسامح لا يعني المساواة أو التنازل أو التساهل بل التسامح هو قبل كل شيء اتخاذ موقف إيجابي فيه إقرار بحق الآخرين في التمتع بحقوق الإنسان وحرياته الأساسية المعترف بها عالميا. ولا يجوز بأي حال الاحتجاج بالتسامح لتبرير المساس بهذه القيم الأساسية. والتسامح ممارسة ينبغي أن يأخذ بها الأفراد والجماعات والدول.

بهذا المعنى يتحول التسامح من مجرد مدلول سلبي - حتى وإن لم يكن كذلك حقيقة فالسلب الذي يراه البعض ضعفا إنما هو في الواقع قوة من يصدر منه التسامح عدا إن اعتباره منة أو هبة - قد يرادف الصبح والغفو إلى معنى إيجابي يفيد القبول المتبادل ضمن فضاءات تتميز بالتعدد في كل ألوانه وأشكاله العرقية، الدينية واللغوية والثقافية وأكثر من هذا يصبح المتسامح كذلك أو الإنسان المعتقد بهذا المبدأ المتصف به والباحث عن نشره، لأنه يرى فيه ضمانا لوجوده ذاته؛ ذلك أن الإقرار بالتعددية والتنوع يكفل لكل واحد حق التمتع بالحقوق من خلال آلية وفضيلة التسامح. "فالتوتر الخاص بمفهوم التسامح يأتي من هذا: ليس تحمل الكرية أو المنفر هو الذي يحول التسامح إلى فضيلة، ولكن تحمل ما يصعب قبوله، بل حتى ما لا يحتمل."¹⁹

4- الدور الفلسفي

تستطيع الفلسفة وهي الجهد الفكري الحر والمستنير بامتياز أن تكون أداة مساهمة وفعالة في نشر التسامح وفي فضح جيوب اللاتسامح وجعلها مدانة ومستهجنة بالعقل والخلق كما تستطيع

¹⁷ تم تبني هذا اليوم أي 16 نوفمبر من كل سنة يوما عالميا للتسامح

¹⁸ يمكن تصفح بنود الإعلان العالمي لمبادئ التسامح على موقع منظمة اليونسكو: www.unesco.org

¹⁹ مونيك كانتو-سبيرير و روفين أدجيان، الفلسفة الأخلاقية، ص 106

الفلسفة والتسامح من جوهرها و صميمها أن تساعد على خلق أجواء الهدوء والسكينة التي تتيح ممارسة التسامح في الواقع وتجعله يسري بين الناس فيحفزهم أكثر على تجسيد قيم التفاهم والعيش المشترك والتضامن.

التبرير الفلسفي

قد يبدو أنه من باب البداهة التأكيد وإعادة التأكيد على أهمية التسامح وقيمه للفرد والمجتمع ولكن للفلاسفة رأي آخر ذلك أن تبريرهم الفلسفي له "يثبت الحدود وهي نفسها المتعلقة بالوجود الحقيقي لجماعة إنسانية بشكل عام أو بشكل خاص فلسفية، المضمونة في الوجود ... بفضل طابعها ذاته لجماعة متسامحة. فالامتساح، هو عدم التسامح، وعدم التسامح مع اللاتسامح لا يعني مطلقا، بالنسبة للمتسامح، تناقضا، إنما أن يظل وفيما لذاته.²⁰

الواقع، أن تصورات الفلاسفة ليست مجرد أمنيات ليوتوبيا قادمة أو شعارات نرفعها هروبا من واقع مؤسف ومخزي، إنما هي لبنات تحقق منها الكثير وأخرى تنتظر التحقيق في سبيل إنجاز عالم سوي، متوازن تحفه العدالة والحرية تحت مظلة التسامح. فقد بدأ الفلاسفة المحدثون - من مرسوم نانت (1598) إلى فولتير (بحث في التسامح 1763) مروراً ببايل (في التسامح 1686) سبينوزا (الرسالة اللاهوتية - السياسة 1670)، لوك (رسالة في التسامح 1689) روسو (في العقد الاجتماعي 1762) - بتعبيد هذا الطريق وأناروا برواهم درب من تلاهم من الذين - من مل (في الحرية 1850) إلى راولس (نظرية العدالة 1971) مروراً بديوي (المبادئ الأخلاقية في التربية 1909) وراسل (المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة 1954) وهابرماس (الأخلاق والتواصل 1983) وولتزر (محاولة في التسامح 1997) - وثقوا حقوق الإنسان وجعلوا منها شرائع تحترم وتبجل ويعاقب من يخالفها تسهر عليها منظمات وهيئات ويدافع عنها جمعيات ونوادي المجتمع المدني الواعي بها وبرهاناتها.

هذه الحقوق التي رسخت بفضل التسامح أو يمكن القول أنه جسدها بحيث احتواها تأسيسا وتوجها عمليا فغدت الحقوق والحريات منضوية داخل مبدأ التسامح تنهل وتشقق منه وجودها وقيمتها.

الفلسفة بهذا، هي عين ساهرة على تجسيد ومراقبة ما هدفت إليه. فهي من هذه الزاوية نضال دائم ضد التعصب والانغلاق والدغمائية التي هي كلها أشكال من اللاتسامح.

²⁰ - Bernard Bourgeois, Philosophie et tolérance, in Philosophica, N° 65, 2000,1, P. 60

مواجهة اللاتسامح

منذ الفترة التي كتب فيها مفكرو العصور الحديثة عن أهمية التسامح وضرورته بل حاولوا التشريع له حتى يصبح ملزما ومحترما بقوة القانون وهو ما تحقق بعد أكثر من قرنين من الزمن وبعد أن شهد العالم حروبا مدمرة وضحايا يعدون بالملايين كانوا في محصلة المطاف وبعيدا عن أسباب النزاع والحرب ضحايا للاتسامح.

إذ يكفي في هذا المقام التذكير بمبادئ التسامح التي أعلن عنها عالميا وصارت بنودا شددت وعززت من قناعات المترددين حيال التسامح وتسييجه بحدود هي نفسها مقيدة للحريات. إن الحدود التي تقف عائقا أمام التسامح هي نفسها التي يخوض الفيلسوف معارك ضدها وهي التي تعيق حرية الإنسان ولا تحترم حقوقه وتهين كرامته.

خلاصة:

إن المجهودات التي قام بها الفلاسفة وأهل النظر على مدى التاريخ الإنساني في سبيل تحقيق السلم والوئام بين الإنسان وما تحقق منها على المستوى المؤسسي وصار مؤكدا في موثيق ومحترما من قبل هيئات ومنظمات تعمل جاهدة على احترامه وتطبيقه لهو تشريف لبني البشر وقدرتهم على تجاوز حالات اللانسجام والتوتر والخصومات وهو كذلك عامل محفز كي يبذل المفكرون والمثقفون عامة جهودا أخرى على درب إشاعة التسامح وتفعيل مبدئه بين الجماعات والأفراد ونعتقد جازمين أن التنظير بحاجة إلى آليات تعزز مواجهة اللاتسامح ومناهضته بتدعيم التشريع والإجراءات القانونية التي تحارب كل أشكال العنف والتمييز العنصري وبتكريس مبدأ التسامح عبر التربية والتعليم فهما أداتين وقناتين مثليين لغرس قيم التآزر والتسامح وتنميتها ولبلوغ ذلك لا بد من المصارحة والحقيقة فهما تكن قسوة الأحداث وعنفها ينبغي فتح المجال للوصول الحر إلى المعلومات وتمكين الأفراد من الاطلاع عليها لأن هذا يعمل بدوره على نشر ثقافة السلم ولتفادي الأخطاء ودرءا للمخاطر والانزلاقات يتوجب العمل على نشر الوعي بها وبن نتائجها السلبية على نطاق واسع.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com